

تعاون الجماعات

آية العصر الحاضر

للدكتور يحيى أحمد الدردري

من سنن الله الخالدة أن الحياة في الجماعات أقوى منها في الأفراد ، وكلما دق نظام الجماعة منح الفرد وسائل حمة تعينه على اجتياز الحياة ودرء الكثير من مخاطرها .

كان الانسان في بدء حياته يعيش في عزلة أو في بيئة ضعيفة لا تعدو أبناؤه وعشيرته ، فكان عرضة لطوارئ الطبيعة وتصاريق الزمان ، فكان كثير الكدح قليل الإنتاج . وقد دار الزمن دورته حتى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، واخترعت الآلة البخارية فأحدثت الثورة الصناعية في إنجلترا وغيرها ونقلت كثيرا من الممالك من زراعة إلى صناعة . ذلك أن الحياة كانت قبل اختراع آلات النسيج البخارية يصير فيها نظام الاقطاعات ، أي حكم الأشرف والتبلاء والكنيسة .

وكان الفلاح يشتغل في فصل الصيف في أرض مولاه حزارعا ، ثم كان في فصل الشتاء حينما تكون الأرض مغطاة بالثلوج وبرودة الجو ولا تصالح لنماء الزرع يشتغل هو وأولاده في دارهم بالفزل والنسيج ، فكان الفلاح يقضى حياته نصف سنة في الزراعة والنصف الآخر في الصناعة ، وقد بقي هذا النظام سائدا إلى أواخر القرن الثامن عشر .

وقد قدم للباحثين الأستاذ لونسكي في كتابه عن التطور الصناعي البلجيكي أمثلة كثيرة في حالة صناعة النسيج إذ يقول :

” إن تاجر المصنوعات القطنية كان يقدم المادة الأولية للصناع الذين يشتغلون لحسابهم ويأخذون أجر ما يصنعون ، وفي هذه الحالة كانت الصناعة في بعض الأوقات في المقام الثاني بعد الزراعة “ .

على أن اختراع آلات النسيج البخارية وبناء المصانع الكبيرة في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر واتساع دائرة الاستثمار الأوروبي ، كل ذلك أحدث انقلابا كبيرا في نظام الهيئة الاجتماعية في كثير من البلاد الغربية ، فإن انتشار الصناعة في دولة كسويسرا ،

نقل حالتها من بلاد زراعية إلى بلاد صناعية ، وكذلك اتساع نطاق المصانع في إنجلترا ، كان له أكبر أثر في حياتها الاجتماعية .

قوبلت آلات النسيج البخارية في أول الأمر بمقاومة عنيفة وامتناع من العمال الذين لم يكبح جماحهم إلا تدخل الحكومة في الأمر .

جذبت المصانع كثيرا من الرجال والأطفال والنساء في بادئ الأمر ، وذلك لكثرة طلب البضائع في الأسواق الداخلية والخارجية وغيرها لرخص ثمنها عن البضائع التي تصنع باليد والأنوال . وكانت كثرة الطلب تدعو المصانع إلى أن تستغل ليلا ونهارا على لرغم من أن نظامها الصحي لم يكن صالحا ولم تكن أجور العمال القليلة كافية لتفقات معيشتهم الضرورية ولم يكن في ذلك الوقت قوازين لحماية العمال .

قال الأستاذ بلت : " يظهر في بادئ الأمر أن كثيرا من رؤساء المصانع رأوا من المهارة والمنفعة أن يكرهوا النساء والأطفال ، وفي كثير من الأحيان العمال أيضا ، على أن يطيلوا مدة العمل . ولجهل الرؤساء بالقوازين الاقتصادية كانوا لا يجعلون في محل الاعتبار أن من مصلحة العمال أن يرى الأمل دائما زميله حسن الصحة وألا يرهق نفسه بأفوق طاقته في أعماله اليومية خصوصا بالنسبة للبالغين ، فقد كان الرؤساء يستعملون معهم التسوية ، وهذا ما لا نوافق عليه " .

كان العمال في هذا الوقت معرضين لشرفاظة والفقير ، وذلك لقلّة أجورهم وعدم استمرار العمل لكفاية الأسواق من الإنتاج الصناعي ، فكان العمال من أجل ذلك في حالة يرثى لها . ولم يكن الفلاحون من المزارعين أحسن حالا من إخوانهم العمال إذ لم يكن لهم من الوسائل ما يفهم عادية الآفات الجوية ويحسن أحوالهم المعيشية ، فكان العمال والزراع يعانون من ألم الفقر والبؤس ما يعانون .

إزاء حالة العمال والزراع السيئة قام نفر من المصلحين يدعو إلى إصلاح حالة هذه الطوائف التمسّة واتخذ كل مصلح من الخبط والنظم ما رآه مؤديا إلى تحقيق غاياته . ونستطيع تلخيص أفكار هؤلاء المصلحين وجمعها تحت نظريتين عامتين :

(١) نظرية الاشتراكية العالمية .

(٢) نظرية التعاون .

وضع نظرية الاشتراكية العالمية كارل ماركس ، الذي ولد سنة ١٨١٨ ، ومات سنة ١٨٨٣ رأى كارل ماركس أن سبب شقاء العمال هو مطامع أصحاب رؤوس الأموال وجشعهم في الحصول على الثروة ، واستغلالهم الضعفاء في سبيل ذلك ، وأنه لا سبيل إلى إصلاح حياة

العمال إلا بالقضاء على سبب الشقاء وهو رأس المال، أى محاربة الملكية الفردية من صناعية وزراعية وتجارية، وأن تكون المساواة بين الناس جميعا قانونا عاما، وأن يكون العمل إجباريا على كل فرد قادر، وتدير هذه الملكية العامة حكومة من العمال والزراع، وبذلك ينصلح حال الطبقة الفقيرة .

ويرى كارل ماركس "أن التطور الاقتصادي من جهة وانتشار الديمقراطية من جهة أخرى، كفيلا بتحقيق برنامجه، لأن التطور الاقتصادي يسير في طريق أن الملكية الصغيرة لا يمكنها البقاء إزاء الملكات الكبيرة لما لهذه من وسائل الرق والنجاح، ولحرمان تلك من هذه الوسائل، ولذلك فمحتوم إذا بقي هذا النظام أن يستحوذ أصحاب الأملاك الكبيرة على الأملاك الصغيرة وهكذا يصير شأن كل ملكية كبيرة مع ما هي أصغر منها، إلى أن تصبح الملكية العامة في يد تفر قليل، ويمكن في هذه الحالة نزع الملكية من يد هذا النفر للصحة العامة بواسطة البرلمان الذى سيكون جله من العمال والفقراء بفضل انتشار مبادئ الديمقراطية وحرية الانتخاب، وحينئذ يمكن للبرلمان اتخاذ الإجراءات التشريعية لنزع هذه الملكية، وأن يجعل من برنامجه تحريم الميراث، وأن يكون العمل إجباريا على القادرين جميعا وأن ينظم جيش من الصناع".

"وقد ذكر الأستاذ موريس بورجان في كتابه (النظم الاشتراكية والتطور الاقتصادي) "أن الاشتراكية العلمية، وهى أن يملك الناس كل شئ، على الشيوع بلا تفاوت، وطريقة إدارة إنتاجها، ونظام الأسعار الثابتة حسب الزمن، ومعدل المجهود العملى، كل ذلك يدعوا الحكومة لأن تملك من السلطة كل ما يملكه الأفراد، وبذلك يلقى على عاتق الإدارة المكونة من أعضاء لا عد لهم، والذين تعولهم الحكومة، واجبا فوق طاقة البشر، ومسئولية ساحقة". وقال شيفل "إذا كان الاشتراكيون يرمون إلى إلغاء حرية حاجيات الانسان وجب أن ينتظر اليهم كأعداء لئلا لكل حرية وكل مدنية وكل نعيم أدبي ومادى" وقد كانت هذه النظرية الاشتراكية أداة البؤس والقوضى والاضطراب .

وبجانب هذه النظرية قامت نظرية أخرى هى نظرية التعاون .

أثر التعاون في الإصلاح :

إزاء ما يعانيه العمال والزراع قام جماعة من المصلحين يدعون إلى الإصلاح عن طريق العمال والزراع أنفسهم ممثلين بقول الشاعر العربي .

ما حك جلدك مثل ظفرك فتول أت جميع أمرك

ومن أشهر دعاة التعاون في فرنسا شارل فوربيه، المولود سنة ١٧٩٢ والمتوفى سنة ١٨٣٥، ومن دعاة التعاون في إنجلترا الدكتور وليم كنج المولود سنة ١٧٧٦ والمتوفى سنة ١٨٦٥، وروبرت آون

المولود سنة ١٧٧١ والمتوفى سنة ١٨٥٨ ، سعى أولها إلى نشر فكرة التعاون بخطاباته وخطاباته الكثيرة في المجلات والصحف وغيرها ، أما الثاني فهو من مؤسسى الاشتراكية الإنجليزية ، وزعيم النهضة التعاونية الأولى ، الذى أخرج فكرته إلى حيز الوجود بواسطة تجاربه وبإنشاء جماعات تعاونية عدة فأدخل فيها كثيرا من الإصلاحات فى معاملته ومصانعه فى بلدة نيولانارك .

والتعاون يرمى إلى غاية سامية ، وهى تحسين حالة القائم به اقتصاديا واجتماعيا عن طريق مجهوداتهم . والتعاون كما قال الأستاذ فائى هو اتحاد بين البشر أكثر من أن يكون اتحادا بين رؤوس الأموال .

وقد أوضح الأستاذ جورج يعقوب هولوبوك عن حقيقة التعاون قائلا : " ما كانت الحركة التعاونية حركة استجداء أو عمل خيرى يقوم به المحسنون لمساعدة المحتاجين ، وإنما هى حركة اعتقاد الطبقات الفقيرة على أنفسها لنيل حقوقها وهى حركة ضمان حقوق الفرد والمجموع معا " .
وقد قال الفيلسوف تولستوى " تحسن حالة العمال والفلاحين تدريجيا بإنشاء جمعيات التعاون والنقابات والدعابة وانتخاب ممثلهم فى البرلمان ممن يعبر عن آرائهم ويدافع عن حقوقهم ، وهذا يؤدى إلى تملكهم المصانع والمزارع وباقى نصاب الانتاج وبذلك يتمتعون بحياة السعادة والحرية " .

لا نزاع فى أن الإصلاح الاجتماعى والاقتصادى من خير أسسه وأقوى دعاة الجماعة الصالحة المؤمنة التى تضيء إلى هدفها باليقين والصبر وصالح العمل .

وقد برهنت أمثال هذه الجماعة بغير البراهين على ما تنتجه من الفوائد للأمة والمجموع .

وأقرب مثل تقدمه ما ذكره الأستاذ خالد شلدريك فى محاضراته عن التعاون فى إنجلترا عن الجمعية التعاونية للاتجار بالجملة فى إنجلترا ، وهى الجمعية التى اشتركت الجمعيات التعاونية المتزلية فى تكوينها ، وعدد هذه الجمعيات نحو ألف جمعية يزيد عدد أعضائها على ثمانية ملايين عضوا وتبيع لهم فى السنة الواحدة بما يبلغ مائتين وخمسين مليون جنيه ، وبفضل هذه القوة التعاونية البالغة أصبحت الجمعية التعاونية للاتجار بالجملة فى إنجلترا تمتلك عشرات المصانع لمختلف أنواع السلع . كما تمتلك المزارع الشاسعة والمناجم ، ولها أيضا أسطولها التجارى المعد لنقل البضائع اللازمة لأعضاء الجمعيات التعاونية المتزلية فى إنجلترا من مختلف أنحاء العالم .

فاذا أردنا النهوض بأممتنا لنسلك بها الطريق السوى فعلىنا أن ننظم الجماعات الصالحة ، ونضع لها الأهداف حتى نصل بالأمة إلى ما نرجو من عز وفلاح .

يحيى أحمد الدرديرى